

في سبيل بلاغة عربية جديدة

د. خالد بوزياني

جامعة عمار ثليجي . الأغواط . الجزائر

ملخص البحث:

تتمحور إشكالية البحث حول موضوع تجديد البلاغة العربية في زمن ظهرت فيه نصوص جديدة تمخضت عن تصورات وطرحات وأفكار حولت وغيرت من أشكال الأجناس الأدبية، لذا فنحن في حاجة إلى نظرية عامة تحيي بلاغتنا العربية وتوجهها الوجهة السليمة وترجعها إلى وضعيتها الطبيعية وتزعمها من أيدي العابثين بها. وهنا يمكننا أن نطرح جملة من التساؤلات: فهل مادة البلاغة العربية صالحة للتطور؟ وأين تكمن العيوب المنهجية للبلاغة العربية في ظل تطور الأجناس الأدبية؟ وهل نحن في حاجة إلى إعادة بناء البلاغة العربية وإحيائها؟ أم نحن في حاجة إلى وضع صياغات شكلية؟

ما زلنا نتحدث عن قضية اللفظ والمعنى ومن هو الاتجاه الأصح أنصار اللفظ؟ أم أنصار المعنى؟ وانقسمنا إلى مؤيد ومعارض وإلى متحيز ومتعصب، وامتألت كتبنا بطرح القضايا الهامشية وانزلت البحوث الحديثة إلى تيار جارف أدى بها إلى المقارنات والإسقاطات وركزت على التأثيرات الوهمية من النظريات الغربية الحديثة.

إن التحولات التاريخية والثقافية والتطورات العلمية والمعرفية التي شهدتها القرنان الثامن والتاسع عشر، عجلت من سقوط البلاغة الأوربية وفقدانها كل قيمة علمية والحال ينطبق أيضا على البلاغة العربية.

سنرى من جانب ظهور نصوص جديدة تبنتها تيارات فكرية ومذاهب أدبية، ومن جانب آخر ظهور نظريات لسانية حديثة أثرت أيما تأثير في بروز علم جديد هو علم الأسلوب.

فعلى الصعيد الأول نرى أن انحطاط البلاغة كان نتيجة ميلاد مفهوم جديد للفن واللغة أدى بها إلى السقوط شيئا فشيئا لأنها كانت غير قادرة على تجديد

نفسها،¹ وذلك لحرمانها الأسس الميتافيزيقية والجمالية التي كانت تسندها مما أدى إلى نزولها إلى مستوى فن الكتابة وصارت مجموعة من الوصفات العلمية.²

إن النصوص الجديدة التي تمخضت عن المذاهب الأدبية لم تكن تنطبق على المعايير والقواعد التي أعدت لنصوص من عصور كلاسيكية، إن أول تحول لهذه النصوص كان في المفاهيم الجديدة للفن عند الرومانسيين³ الذين تمردوا على قواعد الكلاسيكيين وكل القوانين الشعرية الأرسطية التي اعتمدت في النقد والشعر إلى غاية القرن الثامن عشر، وتبنيهم الأفكار المثالية وبخاصة عند كبار المنظرين لهذا الاتجاه الذي يمثله (كانط) و(هيجل).⁴

فتطور الأدب إذن ساهم بشكل واضح ومباشر بالإسراع في فقدان البلاغة كل قيمة علمية لدى جمهور جددته الانقلابات الاجتماعية والتحويلات السياسية والقطيعة مع التعليم التقليدي ولاسيما أنصار جيل الجمهورية والإمبراطورية على حد سواء، يضاف إلى ذلك كله انتشار الثقافة الديمقراطية والاتصال بالأدب الأجنبية التي قدمت المثل الأعلى في أعمال عظمى ليس لشروط الكتابة الدوغمائية والقديمة عليها من الفضل إلا شيئاً يسيراً⁵ تمثل خاصة في مفهوم الأسلوب الذي درس من خلال الطرح البلاغي وذلك ببروز فنون للكتابة ذات طابع معياري وتعليمي تجسدت في مصنفاة تطبيقية لتعليم الطرق الجيدة للكتابة والتعبير، مرتكزة خاصة على أمثلة منتقاة من أعمال الكلاسيكيين.⁶

يقول (رولان بارث) (Roland Barthes): "يتمثل انتصار البلاغة في هيمنتها على التعليم، أما احتضارها فيتجلى في اختزانها ضمن هذا القطاع، إنها تسقط شيئاً فشيئاً في زوال نفوذ ثقافي. وهذا الزوال مقاد من طرف إعلاء قيمة جديدة... فلا تركز الفصاحة على تطبيق سنن خارجي على الخطاب، لكن على الوعي بالفكر الذي يولد فينا بطريقة يمكن معها إنتاج هذه الحركة عندما نتحدث إلى الآخر جاذبين إياه إلى الحقيقة كما لو أنه يكتشفها شخصياً".⁷

وعلى تعبير صلاح فضل أن حماية القوانين التعليمية في أوروبا هي التي عاقت دفن البلاغة نهائياً، ولم يكن واقع البلاغة العربية بمنأى عن ذلك ثم أن احتضان

المؤسسات التعليمية لكلمة بلاغة لم يكن يضمن لها أي وجود فعال في الحركة النقدية والأدبية.⁸

إن العبارة القائلة: "لنحارب البلاغة" ليس لها معنى آخر غير شن الحرب على البلاغة المتحجرة وعلى أشكالها الجاهزة التي طالما أرهقت اللغة دون طائل.⁹ غير أن هناك من الكتاب المحدثين راح يدافع عن البلاغة ككيان مستقل لا يمكن أن يندثر أو يزول أو يتحول فنلاحظ أحمد حسن الزيات يؤلف كتابا بعنوان دفاع عن البلاغة¹⁰ وفي أوروبا مؤلفات كثيرة أراد بها أصحابها رد الاعتبار للبلاغة منها كتاب البلاغة من الإغريق إلى أيامنا هذه للكاتب البلجيكي (ميشال مايير) (Michel Meyer) حيث يقول في مقدمة كتابه: "إنه لا يوجد على الإطلاق تاريخ عام للبلاغة باللغة الفرنسية لكننا نجد مصنفات عديدة لتاريخ الفلسفة والأدب والفن أو العلم، وكأن البلاغة ليس لها وجود خاص أو كأنها لا تستطيع تطوير نفسها بنفسها".¹¹

غير أن الحقيقة المؤكدة أن الأسلوبية قد جاءت بديلا عن البلاغة بديلا لا بد من وجوده في زمن تراكمت فيه النظريات الفلسفية والمقولات الجمالية والطرحات العلمية المختلفة الرؤى والمتباينة المناهج والاتجاهات، لهذه الأسباب قامت الأسلوبية بديلا لازما وملحا عن البلاغة.

ولا بد أن نستعمل كلمة بديل في هذا المقام بحذر فهي لا تدل على الاستمرار في المنهج نفسه وإنما تعني في منهج مغاير قد يهدم كثيرا من الطرحات البلاغية ليبني على أنقاضها طرحات جديدة، يقول عبد السلام المسدي في هذه القضية: "إن الأسلوبية قامت بديلا عن البلاغة، والمفهوم الأصولي للبديل كما نعلم أن يتولد عن واقع معطى وريث ينفي بموجب حضوره ما كان قد تولد عنه، فالأسلوبية امتداد للبلاغة ونفي لها في الوقت نفسه هي لها بمثابة حبل التواصل وخط القطيعة في الوقت نفسه أيضا".¹²

من خلال الآراء السابقة يمكننا أن نكون رأيا مفاده أن البلاغة بالطرح المعياري لم يبق لها أثر أو وجود، فبلاغة الصور من المنظور القواعدي المعياري التي تستند إلى النغمة الإرشادية والأحكام القيمية قد انتقدها الأسلوبيون خاصة مع بروز المنهج الوصفي في اللسانيات عند (سوسير) ومع ذلك فإن طائفة من البلاغيين الجدد

حاولوا رد الاعتبار للبلاغة وذلك باتباع مناهج حديثة. وسيأتي الحديث عن الطروحات النظرية للبلاغة المعاصرة باعتبارها الوريثة الشرعية للبلاغة التقليدية وذلك من المنظور التداولي في مشروع محمد العمري.

محاولات تجديد البلاغة العربية

إن النجاح الباهر الذي حققته المبادئ والأفكار التي ظهرت في الدراسات اللسانية والأسلوبية في أوروبا جعل من بعض الدارسين المحدثين من العرب ينبهرون بها انبهارا شديدا، ومن ثم راحوا يسقطونها على التراث اللغوي والبلاغي عند العرب إسقاطا تعسفيا أساء أكثر مما أحسن وحطم أكثر مما بنا.

وهنا لا أريد أن أقارن إنجازات القرن العشرين بالبلاغة العربية التقليدية وإنما أريد أن أسلط الضوء بشيء من النقد على بعض الدراسات التي تناولت موضوع المقارنة كهدف لدراستها.

يرى الدكتور إبراهيم عبد الله أحمد الجواد أن دارسي مفهوم الأسلوب في التراث قد اتجهوا اتجاهين¹³:

الاتجاه الأول:

حاول فيه ممثلوه تتبع ما أمكن من التراث للنظر في آرائهم المتفرقة وتحديد مفهوم الأسلوب عندهم ويمثل هذا الاتجاه كل من:

1 - محمد عبد الهادي الطرابلسي في كتابه مظاهر التفكير الأسلوبي عند العرب. 1978.

2 - شكري محمد عياد: في كتابه مفهوم الأسلوب بين التراث النقدي ومحاولات التجديد. 1980.

3 - محمد عبد المطلب في كتابه مفهوم الأسلوب في التراث 1987.

الاتجاه الثاني:

حاول أصحابه فيه الكشف عن النظرية الأسلوبية في كتاب ما ويمثل هذا الاتجاه:

1 - عبد السلام المسدي في كتابه: المقاييس الأسلوبية في النقد الأدبي من خلال البيان والتبيين للجاحظ.

2 -شكري محمد عياد: في كتابه البلاغة العربية وعلم الأسلوب. 1988

3 -حامد أبو زيد في كتابه: مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني قراءة في

ضوء الأسلوبية.

إن هذا التقسيم الذي قدمه الباحث الدكتور إبراهيم عبد الله أحمد لا يعكس حقيقة البحث المقارن في الدراسات العربية الحديثة وليس هو النموذج الوحيد كما أن هؤلاء الباحثين لا يمثلون هذين الاتجاهين، وإنما هم من بين العشرات من الباحثين العرب الذين خاضوا في هذا الطريق المسدود.

ثم إنه يمكننا أن نقوم بتصنيف آخر للدراسات العربية الحديثة في مجال الأسلوبيات وهذا التصنيف يتوزع على أربع فئات هي:

الفئة الأولى:

لم تخرج عن التراث البلاغي وقرآته قراءة تقليدية لم تخرج عن إطار النظريات التراثية ولم تقدم في بحوثها سوى تلخيصا تمثل في إعادة صياغة هذه النظريات دون تفسير جديد أو رؤية تحليلية وهذه بحوث عقيمة لا جدوى منها.

الفئة الثانية:

عملت على إلصاق النظريات الأسلوبية الأوروبية الحديثة بالأراء البلاغية في التراث البلاغي العربي وهذه دراسة إسقاطية يغلب عليها الطابع الذاتي والعاطفي، وهو منهج يخلو من الموضوعية العلمية، وهذا النوع من الدراسات أيضا يؤدي إلى طريق مسدود في ميدان البحث العلمي.

الفئة الثالثة:

فهي التي حاولت في بحوثها ودراستها البحث عن أوجه التقارب بين الأسلوبية الحديثة والبلاغة العربية القديمة دون إسقاط هذه المفاهيم على أصالة الدرس البلاغي عند العرب.

الفئة الرابعة:

حاولت تجديد الميراث البلاغي برؤية جديدة ويمثل هذا الاتجاه محمد العمري. ولعل من أبرز الشخصيات التي استقطبت اهتمام البحوث العربية الحديثة في التراث البلاغي العربي الجاحظ وعبد القاهر الجرجاني، وتموقعت هذه الدراسات بين

مسقط للنظريات اللسانية والأسلوبية الحديثة، وبين منصف ومقارب لآراء هؤلاء العلماء، ففي كتاب الأسلوبية والبيان العربي للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي والدكتور محمد السعدي فرهود والدكتور عبد العزيز شرف، خلطه للمفاهيم وعدم الدقة في استعمال المصطلح والأكثر من ذلك الاعتماد على المنهج الإسقاطي.

من بين ما جاء في الكتاب اعتمادهم على رأي طه حسين في أن عبد القاهر الجرجاني قرأ كتاب الخطابة لأرسطو الذي ترجمه ابن سينا وتأثر به،¹⁴ ولقد رأينا فيما سبق الأخطاء التي وقع فيها طه حسين من خلال منهج الشك الذي قرأ به التراث العربي.

ومن جانب آخر يرى أصحاب هذا الكتاب أن الأسلوبية المعاصرة لا تكاد تختلف في كثير من نظرية النظم العربية، ثم نطالع في الكتاب نفسه: «لم يكن فكر عبد القاهر تقليدا لمذهب أو احتذاء لفكر إنما كان تأصيلا جديدا لكل من سبقه من أفكار البلاغيين والنقاد والأسلوبيين وكانت أحكامه البلاغية نتاجا لذوق أدبي مرهف»¹⁵.

ثم نجد في فصل آخر من الكتاب نفسه نقیض ما قيل في هذا النص حينما رأى بأن فكر عبد القاهر الجرجاني قد تأثر بمصادر بلاغية عديدة فقد أفاد من المبرد واقتبس من آرائه كما أخذ عن قدامة بن جعفر والآمدي وأبي هلال العسكري وأرسطو¹⁶، وهكذا لم يتركوا لعبد القاهر شيئا خاصا بفكره وأصالة نظريته.

ونطالع في كتاب الأسلوبية ونظرية النص للدكتور إبراهيم خليل: «يتطابق الكثير من آراء عبد القاهر الجرجاني وأنظاره في وجوه النظم والأسلوب وعلاقة ذلك باللغة والنحو والبلاغة مع آراء البنويين المعاصرين والأسلوبيين المجددين في النقد الأدبي والبلاغي»¹⁷ دون أن يذكر أي بنوية وأي أسلوبية يقصد فالبنوية اتجاهات والأسلوبية كذلك مدارس واتجاهات ونظريات مختلفة ومتنوعة فهذه الدراسة إسقاطية لا موضوعية فيها، فالتطابق بين آراء عبد القاهر وبين آراء البنويين يحتاج إلى أدلة علمية دقيقة مفصلة تعرض فيها البنوية بمبادئها وأطروحاتها ثم تقابل بآراء عبد القاهر الجرجاني، هذا ما لم نعر عليه في هذه الدراسة، بل وفي الكتاب نفسه نلاحظ نسا آخر يتعلق بتحليل عبد القاهر الجرجاني للصورة البلاغية الواردة في قوله تعالى:

«واشتعل الرأس شيبا» يعلق الدكتور إبراهيم خليل قائلاً: «... ثم توقف عند قوله تعالى: واشتعل الرأس شيبا وبين خطأ الاعتقاد بأن مزية الآية تتبدى في تداخل أسلوبين: الأول يعتمد إليه الشاعر برؤيته الشخصية المبتكرة والخاصة فيأتي به من خلال تشكيل جديد للمعنى فيبرز ذلك من خلال الأسلوب الذي يعتمد عليه والثاني: يعتمد إليه الشاعر برؤيته الأسلوبية المقلدة لغيره للرؤية الأصلية».¹⁸

وهذا الكلام غامض لم يوضح فيه الكاتب تحليل عبد القاهر هذه الاستعارة. ومن بين المقارنات العامة البعيدة عن الدقة العلمية والموضوعية مقارنة الكاتب بين اهتمام كل من (جون ميرى) وعبد القاهر الجرجاني في التصوير الفني كالاستعارة والتشبيه وما إلى ذلك، إن الاهتمام هنا غير مبرر علمياً فكل البلاغيين والفلاسفة وعلماء الشعر اهتموا بموضوع الصورة بل إن الصورة كانت ميدانهم المفضل بقول: «وإذا كان الأسلوب بتراكيبه الخاصة يدخل في صناعات الفن التشكيلي فإننا نلمح الحديث عن درجات الأسلوب وصفاته، حيث تدخل الصورة الفنية بطبيعتها التكوينية كأداة للتمايز الأسلوبى، ولهذا السبب فإن كلا من (جون ميرى) وعبد القاهر الجرجاني يولي اهتماماً بالصورة الفنية عامة»¹⁹

وعن الاستعارة يقول: «فالاستعارة بأبعادها أساس التمايز الأسلوبى عند (ميرى) وهذه النظرية تعد الاستعارة عملية تركيبية تحدد درجات البراعة لدى المبدع، ويلتقي هذا الاهتمام الخاص عند (ميرى) باهتمام مماثل عند عبد القاهر الجرجاني ذاته حيث يشير إلى أهمية الصورة البيانية (التشبيه والتمثيل والاستعارة)»²⁰.

ومن بين الأغلاط التي نعثر عليها في كتب المحدثين عبارات الإسقاط كما نجد ذلك في كتاب (نحو بلاغة جديدة) للدكتور محمد منعم خفاجي والدكتور عبد العزيز شرف قولهما: «فابن رشيق القيرواني - للمثال - يطاء نفس العتبة التي وطأها الشكلاونيون المعاصرون»²¹ فالذي يطاء على خطأ الآخر هو المتأخر والعبارة الصحيحة ويطاء الشكلاونيون المعاصرون أو عبارات أخرى مثل وتقترب آراء ابن رشيق مع آراء الشكلانيين إلى غير ذلك، إلا أننا لم نلمس أي تقارب مؤيد بالأدلة والشواهد العلمية. ويضيف الكاتبان مقارنة أخرى وذلك في تحليل عبد القاهر للاستعارة في «اشتعل» "بينما الفضل في رأيه نابع من السياق الذي وضعت فيه كإسناد الاشتعال

للرأس و تأخير (شيبا) لتتصب في آخر الجملة على التمييز ولو أننا غيرنا ترتيب الألفاظ لتغير المعنى و هذا الذي ذكره الجرجاني لا يختلف عما ذكره كولريديج في حديثه عن لغة الشعر أو ما ذكره تسومسكي عن الحديث عن البنية العميقة في الجملة الواحدة»²².

إن هذا الاستنتاج بعيد عن الصواب و هو وصف ذاتي عاطفي و يحتاج إلى الدليل العلمي، فلا علاقة لنظرية عبد القادر الجرجاني في تحليل هذه الصورة بنظرية كولريديج فالأولى نظرية في النظم والصياغة وهي من صميم البلاغة والنحو، أما الثانية فهي نظرية في فلسفة الجمال وهي نظرية في الخيال وعبد القادر الجرجاني لم يتجه وجهة فلسفية في تحليل هذه الصورة البلاغية، وإنما اتجه وجهة لغوية نحوية بلاغية.

ومن بين البحوث العربية التي تطرقت إلى هذه المقارنات العقيمة والتي تذبذبت بين التأصيل والحدثة كتاب (الأسلوبية بين عبد القادر الجرجاني وجون ميري دراسة مقارنة) للدكتور شوقي علي الزهرة ولا تدري ما أساس المقارنة في هذا البحث وما هي الاعتبارات التي دفعته إلى البحث في نقاط الالتقاء فإذا تصفحنا الكتاب فلا نكاد نلمس شيئاً ذا صبغة علمية وموضوعية اللهم بعض الإشارات لبعض المفاهيم البلاغية المشتركة بين البلاغة العربية والبلاغة الأوروبية بصفة عامة إذ أن معظم الأفكار المطروحة هي عبارة عن تأويلات بعيدة في أغلب الأحيان، وربما تصادفنا بعض المقارنات التي لا أساس لها من الصحة كمقارنة الكاتب لمفهوم الأسلوب بين عبد القاهر الجرجاني وبين (جون ميري) الذي ارتكز على تعريف (بيفون) "الأسلوب هو الرجل" والقصد من هذا أصالة الطريقة الذاتية للمؤلف.

لكن الدكتور شوقي علي الزهرة يجعل الأسلوب عند عبد القاهر الجرجاني علاقة (بالاحتذاء) والاحتذاء هو محاولة أخذ المعنى وتشكيله في معنى جديد يقول: «جاء مصطلح الأسلوب عند عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز من خلال حديثه عن موضوع إبداع مميز هو الاحتذاء»²³ ويقول في موضع آخر: «وقد جاء الحديث عن الأسلوب من خلال هذا الجانب التطبيقي كما يعرف بالاحتذاء.»

ومن بين الترهات قولهما: «والرأي عندنا أن الدلالة اللغوية العربية للبلاغة هي المقابل الصحيح لما نسميه اليوم (بعلم الاتصال communication)».²⁴

لقد حاول مؤلفا هذا الكتاب أن يربطاً وظائف الاتصالية بالقيم البلاغية، وربما كانت تأويلات المؤلفين في كثير من الأحيان بعيدة كل البعد عن مجال البحث البلاغي عند العرب يقول المؤلفان: «وتأسيا على ما تقدم يمكن القول أن وسائل الإعلام والاتصال بالجماهير كامتداد تكنولوجي للغة بمفهومها العام قد جاءت كامتدادات بلاغية لتعطي للبلاغة مفهوماً أشمل يرتبط بمصطلح الاتصال كما تقدم ولكن تؤثر تأثيراً اجتماعياً خطيراً».²⁵

وعموماً فإن الكتاب يربط العلاقة بين البلاغة ووظائف الاتصال دون تقديم شيء جديد اللهم عنوانه الذي يمكننا عده في مجال التجديد.

في سبيل بلاغة جديدة :

يمكننا من خلال ما سبق أن نطرح سؤالاً جوهرياً و فاصلاً في الوقت نفسه: ما جدوى الدراسات المقارنة بين التراث العربي والدراسات الأسلوبية الحديثة؟ ألا يجدر بنا أن نعمل على دراسة مبادئ جديدة لبلاغة جديدة ؟

نحن لسنا في حاجة إلى إسقاط الأسلوبية الحديثة بكل اتجاهاتها على البلاغة العربية، في وقت تخلت فيه الدراسات الأوروبية عن الكثير من المفاهيم الأسلوبية الحديثة لقصورها على معالجة الأدب من جانب، ووصول كثير من هذه النظريات والاتجاهات إلى طريق مسدود عندما اهتمت فقط بالرسالة دون ربط ذلك بالقارئ ودراسة رد فعل اتجاه هذه الرسالة.

هذه بعض الأسباب التي جعلت جيلاً كاملاً من الدارسين يلتفت إلى البلاغة الكلاسيكية لإحيائها بمنهج حديثة.

فكيف ننسب إذن للبلاغة العربية مفاهيم خاطئة قد تخلت عنها معظم البحوث والدراسات التي كتبت بأقلام أوروبية، أنا لا أشك أن ثمة تقارب في بعض المفاهيم هذا لا يعني الإسقاط و التأويل البعيد والذي لا أساس له من الصحة.

أقول نحن في حاجة إلى نظرية عامة تحيي بلاغتنا العربية وتوجهها الوجهة السليمة وترجعها إلى وضعيتها الطبيعية وتنزعها من أيدي العابثين بها.

وهنا يمكننا أن نطرح جملة من التساؤلات هي: هل مادة البلاغة العربية صالحة للتطور؟ وأين تكمن العيوب المنهجية للبلاغة العربية؟ وهل نحن في حاجة إلى إعادة بناء البلاغة العربية وإحيائها؟ أم نحن في حاجة إلى وضع صياغات شكلية؟ ما زلنا نتحدث عن قضية اللفظ والمعنى ومن هو الاتجاه الأصح أن نصار اللفظ؟ أو أن نصار المعنى؟ وانقسمنا إلى مؤيد ومعارض وإلى متحيز ومتعصب، وامتألت كتبنا بطرح القضايا الهامشية وانزلت البحوث الحديثة إلى تيار جارف أدى بها إلى المقارنات والإسقاطات وركزت على التأثيرات الوهمية من أرسطو إلى النظريات الحديثة.

محاولات تجديد البلاغة العربية :

إن من بين أهم المحاولات لتجديد الميراث البلاغي عند العرب تمثلت في أعمال متواضعة لكنها جديرة بالاحترام لإدراكها لصلب الإشكالية المطروحة ولجراتها في طرح هذه الإشكالية ومحاولة إيجاد البدائل الممكنة لحلها وتتمثل هذه المحاولات في أعمال وطرحات سأستعرض بعضها باختصار :

1. أحمد حسن الزيات:

يرى أحمد حسن الزيات أن البلاغة العربية القديمة لم تلتفت إلى مفهوم الأسلوب من حيث هو فكرة وصورة، فقد سككت عنه سكوت الجاهل به لأنها كانت تعنى بالجمال وما يعرض لها في علم المعاني وبالصورة وما يتنوع منها في علم البيان، وهو يؤمن في الوقت نفسه بأن هناك بعض التصورات المفيدة في موضوع الأسلوب عند عبد القاهر الجرجاني، وأبي هلال العسكري وابن الأثير لكن دون أن يسقط أي نظرية حديثة إسقاطاً مباشراً لذلك²⁶.

من بين محاولاته لتحديد البلاغة قوله: «البلاغة هي بمعناها الشامل الكامل ملكة يؤثر بها صاحبها في عقول الناس وقلوبهم عن طريق الكتابة أو الكلام فالتأثير في العقول عمل الموهبة المعلمة المفسرة، والتأثير في القلوب على الموهبة الجاذبة المؤثرة ومن بين هاتين الموهبتين تنشأ موهبة الإقناع»²⁷.

إن قراءة سريعة لهذا النص تجعلنا ندرك الخط الذي رسمه أحمد حسن الزيات للبلاغة - وإن كانت أفكاره مجرد ملاحظات عامة - وذلك من خلال الإقناع والتأثير

وهو الخط التداولي الذي يعيد للبلاغة مجدها وقوتها بالتركيز على المتلقي ورد فعله اتجاه المرسل.

2 - أحمد الشايب:

يقترح أحمد الشايب منهجا جديدا لعلم البلاغة العربية يقوم على نقد تقسيم البلاغة إلى علوم ثلاث لأن هذه الدراسة لا تستوجب أصول البلاغة كما يجب أن يكون، ومن ملاحظاته أنه يجب وضع علم البلاغة العربية وضعا جديدا يلائم ما انتهت إليه الحركة الأدبية في ناحيتها العلمية والإنشائية، ويقترح أن يدخل باب البلاغة في بابين اثنين:

(أ) - باب الأسلوب ويتناول دراسة الحروف والكلمات والجمل والصور وال فقرات وال عبارات، وذلك بالاعتماد على علوم الصوت والنفس والموسيقى، وتدخل في هذا الباب موضوعات المعاني والبيان والبديع لا على أنها علوم مستقلة. يقول: «والبلاغة بعد ذلك أشد ما تكون صلتها بالفن الجميل لأنها في الحقيقة آخر هذه الفنون كالرسم والتصوير والموسيقى والنقش».²⁸

(ب). ويدرس الفنون الأدبية وقوانينها شعرا ونثرا فيدرس:

أصول المقالة والخطابة والرسالة والجدل والوصف والثناء والقصة والملحمة والتمثيلية والتاريخ و التأليف، وما ذهب إليه أحمد الشايب يقترح إلى ما دعا إليه كوهن حين رأى أن الظاهرة الشعرية لا تنحصر انحصارا كليا في حدود الأدب فمن الممكن جدا السعي للبحث عن شعرية عامة تتناول الملامح المشتركة بين جميع الموضوعات التي تثير الانفعال الشعري.²⁹

وكان كل ذلك من خلال الانتقادات التي قدمها أحمد الشايب للبلاغة التقليدية، يقول: «رأينا أن البلاغة العربية انتهت في أبحاثها إلى علمين أساسيين المعاني والبيان وجعلت البديع ملحقا بهما، كما لاحظنا أن مباحث هذه العلوم لا تخرج في جملتها عن دراسة الجملة والصورة لتغذية قوة الإدراك النفسية وسنرى هنا أن موضوع البلاغة أعم من ذلك وأشمل وانه لا حاجة لنا مطلقا إلى هذه الأسماء العلمية كالمعاني والبيان والبديع»³⁰.

إن هذه الآراء والأفكار وإن كانت ربما لم تأخذ مأخذ الجد من طرف الدارسين والباحثين إلا أنها حملت معها بذور التجديد، وإن لم يكن لها فضل يذكر فيكفيها فضل سبق في مجال تجديد البلاغة العربية.

3 - أمين الخولي :

دعا أمين الخولي إلى دراسة فن القول وعلاقته بعلوم الفلسفة والجمال والنفس وفي رأيه تبدأ بالكلمة ثم الجملة ثم الفقرة ثم دراسة الصورة. ويقسم دراسة الصورة إلى قسمين :

(أ) - صور الإيضاح المعلن كالتشبيه والاستعارة والكناية والمجاز والتجريد والقلب وأسلوب الحكيم والمبالغة وتأكيد المدح.

(ب) - صور التعبير المضللة من رمز وإيماء³¹.

ومن المحاولات في هذا المجال أيضا والتي ابتعدت عن المقارنة وركزت على التأصيل ما جاء في كتاب الإبلالية في البلاغة العربية للدكتور أبو حمدان حيث ركز على البعد التداولي والإبلاغي للقضايا البلاغية محاولا تتبع منهج يقارب فيه بين ما جاء به البلاغيون وبين بعض النظريات الكبرى إلا أنه لا يعطي بدائل علمية دقيقة لدراسة الكثير من النصوص الجديدة من المنظور التداولي الإبلاغي. لكن هذه المحاولة أيضا فيها نوع من القصور لأن البحث ركز على التأريخ للنظرية البلاغية في التراث البلاغي عند العرب.

والحق أن هذه المحاولات كلها وإن لم ترق إلى مستوى النظرية الجديدة لعلم البلاغة العربية فإنها قدمت ملامح يمكن أن نعدّها أولى البذور في مجال التجديد على الإطلاق.

محمد العمري ومشروع البلاغة الجديدة:

ينطلق محمد العمري في تجديده للبلاغة من ملاحظات عميقة وتصور شامل ودقيق لمشروع كبير لتجديد البلاغة العربية رافضا بذلك التصور المدرسي الذي اقترحه السكاكي، أي ما يسمى البلاغة المدرسية المختزلة في علم المعاني والبيان والبديع.

إن الحديث قد أعاد للبلاغة نسقها الذي فقدته عبر عصور الانحطاط حين اختُزلت في مجموعة من الصور الشعرية. فالغريبيون أعادوا الاعتبار للبعد التداولي المقامي رابطين الصلة بكتاب الخطابة لأرسطو، وقام محمد العمري بالعمل نفسه حين أعاد الاعتبار لهذا البعد انطلاقاً من البيان والتبيين للجاحظ. وبذلك صارت البلاغة ذات جناحين: جناح نصي لغوي، وجناح تداولي مقامي، ويفرق في ذلك بين بلاغة عامة وبلاغات خاصة بلاغة الشعر وبلاغة الحجاج.

وهو يرى بأن الأسلوبية أسهمت في تعميق البحث في الأساليب، وتجاوزت المعيارية التي كانت البلاغة قد وقعت فيها خلال أزمتها، ولكنها لا تقدم إطاراً نظرياً يغطي "الخطاب الاحتمالي المؤثر" الذي تستوعبه البلاغة اليوم بشكل سهل. حيث تحولت البلاغة بفضل جهود بعض مناطق الحجاج إلى لغة للتواصل بين كل الاختصاصات العلمية. فالكامل يحتاج إلى أدواتها التخيلية والحجاجية للتبليغ والإقناع.

سنركز في حديثنا على هذا المشروع في النقاط الآتية:³²

بدأ محمد العمري بقضية جوهرية ومهمة في الآن ذاته ألا وهي المفهوم حيث

أولاه أهمية كبيرة مركزاً فيه على ما يلي:

- المفهوم الأرسطي الذي يُخصّصها لمجال الإقناع وآلياته.
- المفهوم الأدبي الذي يجعل البلاغة بحثاً في صور الأسلوب.
- المفهوم النسقي الذي يسعى لجعل البلاغة علماً أعلى يشمل التخيل والحجاج

معاً.

ولعل أبرز ما شد انتباهه هو الإشكالات التي يثيرها المفهوم العام النسقي

للبلاغة.

القضية الجوهرية الثانية تتعلق بالمصطلحات الجديدة التي تحدد المفاهيم البلاغية الجديدة، مثل لفظ ريطورية أرسطو التي ترجمها إلى الخطابية، والمستمع، على وزن مجتمع، ترجمة للكلمة الجوهرية في التداول الحجاجي *auditoire*، وكلمة صورة مقابل لكلمة *figure*، وحجة لكلمة *argument*.

لقد أشار محمد العمري إلى قضية بالغة الأهمية بل كانت من بين أهتماماته الكبرى في كتابه البلاغة بين التخيل والتداول وهي التي تتمركز في المنطقة التي

يتقاطع فيها التخيل والتداول، وهي منطقة الاحتمال. انطلاقاً من أن البلاغة هي علم الخطاب الاحتمالي الهادف إلى التأثير أو الإقناع أو هما معا إيهاما أو تصديقا. ويرى أن الحديث عن علمٍ للتخيل والتداول باعتبارهما خطابين يتجهان نحو قطبين متباعدين يقتضي بيان العنصر الجوهرى الذى يجمعهما، ومدى الإنتاجية الإضافية المترتبة عن الجمع، فضلا عن الحاجة إلى ضبط الحدود مع الجوار المعرفى المنطق والفلسفة واللسانيات.

كما تناول مسألة المجاز في تأرجحه بين البعد المعرفى الإقناعى والبعد التخيلي الإبداعى.

خاتمة:

إن مشروع محمد العمري لتجديد البلاغة العربية من خلال كتابه البلاغة بين التخيل والتداول في نظري ليعد بحق خطوة كبيرة من أجل بلاغة عربية تقدم تصورات من أجل تحليل الخطابات الشعرية وغيرها في زمن تباعدت فيه الهوة بين البلاغة الأوروبية والبلاغة العربية وفي زمن ازدحمت فيه النظريات والطرحات والتصورات البلاغية الجديدة.

- 1 . ينظر ببير غيرو، الأسلوب والأسلوبية ترجمة منذر عياش مركز الإنماء الحضاري للدراسات والترجمة والنشر حلب . سوريا . الطبعة الثانية 1994، ص 5.
- 2 . ينظر المرجع نفسه.
- 3 . ينظر فليب فان تبيغم، المذاهب الأدبية الكبرى في فرنسا ترجمة فيد أنطونيوس منشورات عويدات بيروت . لبنان . الطبعة الثالثة 1983، ص 192.
- 4 . ينظر الدكتور محمد غنيمي هلال في النقد الأدبي الحديث، ص 158.
- 5 . ينظر ببير غيرو، الأسلوب والأسلوبية، ص 24.
- 6-Etienne Karabétian ; **Histoire des stylistiques** ; Armand Colin / HER Paris 2000 – page 13.
- 7 . رولان بارث، قراءة جديدة للبلاغة القديمة ترجمة عمر أكان دار إفريقيا الشرق 1994 . ص 38.
- 8 . ينظر صلاح فضل بلاغة الخطاب وعلم النص عالم المعرفة الكويت 1992، ص 188.
- 9 . ينظر جان كوهن بنية اللغة الشعرية، ص 45.
- 10 . ينظر أحمد حسن الزيات، دفاع عن البلاغة مطبعة الرسالة . القاهرة . مصر 1945.
- 11-Michel Meyer; **histoire de la rhétorique des Grecs à nos jours**; le livre de poche librairie générale Française 1999 page 5.
- 12 . عبد السلام المسدي، الأسلوب والأسلوبية دار سعاد الصباح الكويت، ص 52.
- 13 . إبراهيم الجواد الاتجاهات الأسلوبية في النقد العربي الحديث وزارة الثقافة . عمان . الأردن 1996، ص 47.
- 14 . د/ محمد عبد المنعم خفاجي، الأسلوبية والبيان العربي الدار المصرية اللبنانية الطبعة الأولى . القاهرة . مصر 1992، ص 36.
- 15 . المرجع نفسه، ص 5.
- 16 . المرجع نفسه، ص 95.
- 17 . د/ إبراهيم خليل، الأسلوبية ونظرية النص الطبعة الأولى المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت 1997، ص 49.
- 18 . المرجع نفسه، ص 51.
- 19 . المرجع نفسه، ص 103.
- 20 . المرجع نفسه، ص 104.

-
21. د/ محمد عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف، نحو بلاغة جديدة مكتبة غريب . القاهرة 1980، ص 56.
- 22 . المرجع نفسه.
- 23 . د/ شوقي علي الزهرة، الأسلوب بين عبد القاهر الجرجاني وجون ميرري، مكتبة الآداب . القاهرة 1992، ص 51.
- 24 . المرجع نفسه، ص 56.
- 25 . المرجع نفسه، ص 118.
- 26 . أحمد حسن الزيات، دفاع عن البلاغة مطبعة الرسالة مصر 1945، ص 45-56.
- 27 . المرجع نفسه، ص 20.
- 28 . أحمد الشايب الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب مكتبة النهضة المصرية الطبعة الخامسة (د.ت)، ص 37.
- 29 . جان كوهن، بنية اللغة الشعرية ص10.
- 30 . المرجع نفسه، ص 41.
- 31 . أمين الخولي، فن القول، دار الفكر العربي، القاهرة، 1947.
- 32 . ينظر محمد العمري البلاغة بين التخييل والتداول.